تصوير فاتن محمد سليمان، ١١ سنة، مخيّم الميّة وميّة).

جمعية «ذاكرة»: الفلسطيني خالقُ الصورة، لا موضوعُها

رنا حايك

راهنتْ جمعيةُ «مهرجان الصورة ذاكرة» على حماس أعضائها ومواظبتهم، فكسبت الرهان. نفّذت الجمعية خلال عاميْ ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧ مشروع «لحظة،» وتوّجتْه خلال عام ٢٠٠٨ بإصدار كتاب حوى صوراً التقطتْها عدسةُ أطفال المخيّمات الفلسطينية في لبنان. فقد جال، بموجب هذا المشروع، ستةُ مصوّرين محترفين على المخيّمات خلال سنتين، يوزّعون الكاميرات على الأطفال ويعلّمونهم أصولَ فنّ التصوير، أملاً في إضفاء بعض البهجة على أيامهم، وبعضِ الأمل والتنوّع على خياراتهم المستقبلية.

كان المشهد يتكرّر عند كلّ لقاء: يتحلّق الأطفالُ حول طاولة مستديرة في أحد مراكز «الاتحاد العامّ للمرأة الفلسطينية» في مخيّم قد يكون مخيّم المعشوق أو الرشيدية في مدينة صور، أو مخيّم برج البراجنة وصبرا في بيروت.

بينهم تجلس إلسي، وهي عضوٌ في الجمعية، وبيدها الكاميرا التي لا تفارقُها نظراتُهم. تدوِّن الأسماءَ، وتبتسم باستمرار، محاولةً كسرَ حاجز الخجل الذي يعتريهم فور دخول فريق العمل حضانتَهم الهادئة.

«مين منكم صَوّر مِنْ قبل؟ وشو صَوّرتو؟» تسألهم. يتهامسون ويتضاحكون مرتبكين. أحمد كان أجرأهم في مخيّم المعشوق في صور. بادر إلى الإجابة: «صوّرت في عيد ميلاد أخي.» تحمّستْ نور، الطفلةُ المحجّبةُ التي تبلغ العاشرةَ من عمرها: «مرّة صوّرت ستّي.» بعضُهم تحرّر من الارتباك مع مرور الوقت. «عفاريت» المدرسة تعلو أصواتُهم في هرجٍ ومرجٍ جانبييْن. يَشْعر رمزي حيدر، رئيسُ الجمعية، أنّ عليه استعادةَ انتباه الجميع: «جينا نعطيكم فرصة للتعبير عن رأيكم باللي حواليكم من خلال الصورة. صوّروا الاشيا اللي بتحبّوها أو اللي بتكرهوها في المخيّم.»

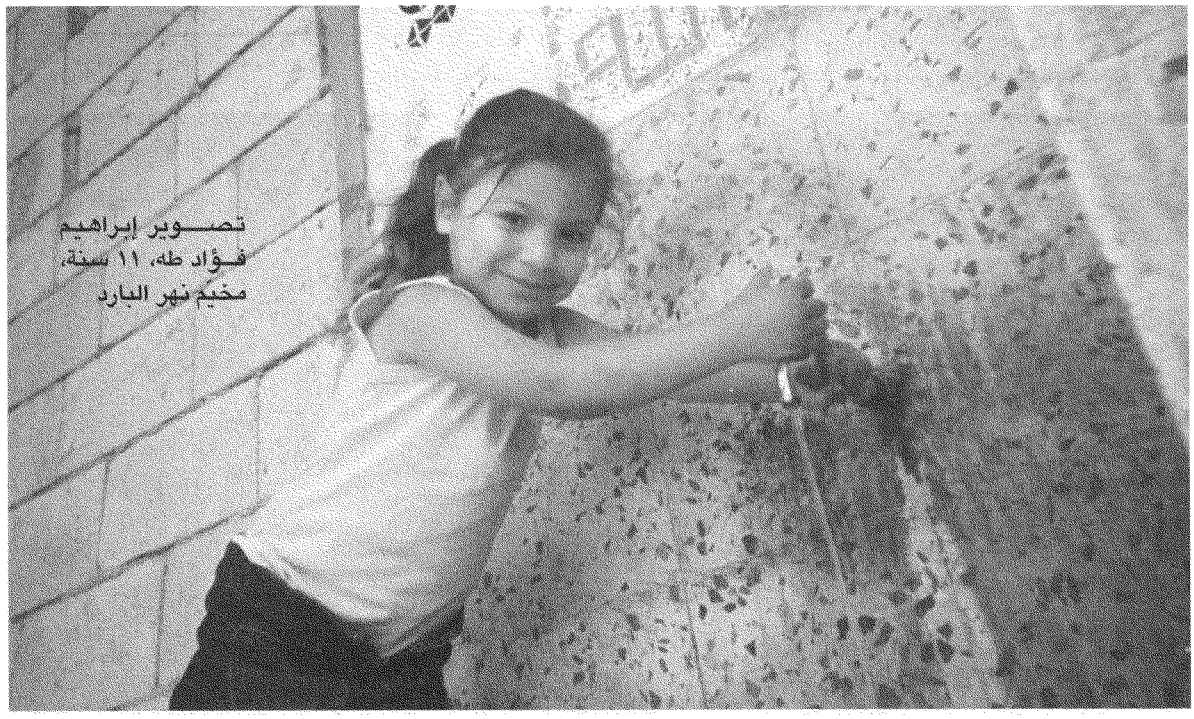

تصوير إبراهيم فؤاد طه، ١١ سنة، مخيّم نهر البارد

يتناوب بلال ومروان، المصوِّران في جريدة **الأخبار** والمتطوّعان في الجمعية، على شرح كيفية استخدام الكاميرا: الماء عدوّها الأول؛ الضوء يُحْرق الصورة إذا واجه العدسة؛ يجب التأنّي وتثبيتُ اليد قبل الضغط على زرّ التقاط الصورة...

حالٌ من الحماس تسري في أبدان الأطفال مع مرور الساعات في كلّ زيارة يقوم بها الفريقُ إلى أحد المخيّمات. يَعْجزون عن كبتها فيتململون في انتظار وصول دورهم في التقاط الكاميرا. في هذه الأثناء تُحادثهم إلسي: «شو حابّين تصيروا بس تكبروا؟» أحمد يريد أن يصبح لحّامًا كعمّه؛ فهو يحبّ ذبحَ الخواريف. حسن يريد السفرَ إلى ألمانيا ليعمل مع خاله، تاجرِ السيّارات. أما الفتيات، فكلّهنّ يردن أن يصبحن مدرّسات. يستدرك رمزي: «هلق صار فيكن تفكّروا كمان تصيروا مصوّرين إذا حبّيتوا التجربة اللي رح نعملها سوا.»

مشروع «لحظة» أتاح لخمسمئة طفل من المخيّمات الفلسطينية أن يحملوا الكاميرا، للمرة الأولى ربما في حياتهم، ليلتقطوا صورًا تلخّص واقعَهم. بعضُهم سيتركها بعد حين، وبعضُهم قد لا يتركها أبدًا بعد أن يكتشفَ فنَّ التصوير ويكتشفَ المصوّرون الذين يُشْرفون عليه موهبتَه.

المشروع، الذي بدأتْ جمعيةُ مهرجان الصورة «ذاكرة» تنفيذَه في أواخر عام ٢٠٠٦، أتاح لهؤلاء الأطفال، الذين كثيرًا ما شكّلوا موضوعَ الصورة الصحافية والفيلم الوثائقي، صُنْعَ الصورة بأنفسهم هذه المرة. ذلك لأنّ «قضيتهم إعلامية بالأساس،» كما يقول رئيسُ الجمعية وصاحبُ فكرة المشروع رمزي حيدر. ولقد تربّوا على تراكم الصور التي يستحضرونها من ذاكرة أهاليهم عن الوطن المفقود، والتي يشاهدونها على شاشات التلفزيون وفي الجرائد ويَشْهدون على صنعها يوميّاً في أزقّة المخيم.

«ولأنني عشتُ الفقرَ والحرمانَ وانتظرتُ الأعيادَ لأحصلَ على ثياب جديدة، فإنني أدرك فرحةَ الطفل المحروم بالآلة ـ اللعبة المتعة،» يقول رمزي. ولأنه مصوّرٌ محترفٌ سخّر حياتَه لنقل الواقع بأمانة، فقد أدرك أنّ الكاميرا هي سلاح مهمّ لأطفال المخيّمات. غير أنّ هذا الإدراك جاء على مراحل: فالفكرة راودتْ حيدر حين كان يصوّر يوميّاتِ إسقاط النظام البعثي في العراق. يومَها، سقط صدّام حسين، فسقطتْ بلادُ الرافديْن في دوّامة العنف والعنف المضادّ. فكّر رمزي حينها في أطفال العراق. لكنّ الحرب، التي ذهب ضحيتَها الكثيرُ من الصحافيين ونَشرت الرعبَ في شوارع المدينة، جعلته يستبعد الفكرة. ففي ظلّ التوجّس من أيّ وسيلة لأرشفة الحاضر، بدا تزويدُ الأطفال بكاميرا ضربًا من الجنون.

«جنون» لم تَصْلحْ ممارستُه إلاّ في المخيّمات الفلسطينية في لبنان! فتركيبةُ المخيّمات، وتآلفُ سكّانها مع الكاميرا ومع الصورة، سهّلا تنفيذَ المشروع الذي بدا مستحيلاً في مختلف المناطق اللبنانية المشحونة بالتدابير الأمنية والتوجّس من «آخرَ» متربّصٍ مجهولٍ ودائمِ التهديد. وبلغ حماسُ أعضاء الجمعية للمشروع حدّ تحمّل تكلفة الكاميرات كاملةً من دون الاستعانة بأيّ تمويلٍ خارجي في البدايات، وحدّ استثمار جهود الأعضاء ووقتهم من خلال التطوّع لتنفيذه. تلقّت الجمعيةُ بعدها بعضَ المساهمات المالية من أفراد، ساعدتْها على إتمام المشروع، وعلى إمكانية التدخّل لحلّ بعض المآسي، كما

تصوير غسان مصطفى عوض، ١٢ سنة، مخيّم عين الحلوة.

في حالة الطفل محمد الحاج حسن: فقد ساهمت الجمعيةُ في توفير فرصة إرسال ذلك الطفل، الذي فَقَدَ أطرافَه عند انفجار قنبلةٍ عنقوديةٍ به في مخيّم الرشيدية، إلى ألمانيا حيث تمت بنجاحٍ عمليةُ تركيب أطرافٍ صناعيةٍ له.

❖ ❖ ❖

بدأ المشروع من الجنوب عام ٢٠٠٦. فقد تطوّع ستةُ مصوّرين محترفين، كما ذكرنا، لزيارة مخيّمات الرشيدية والباص والبرج الشمالي والمعشوق. وتمّ التنسيقُ مع الاتحاد العامّ للمرأة الفلسطينية لترتيب الجولات واللقاءات بالأطفال في المراكز التابعة للاتحاد. يعمد المصوّرون خلال هذه الجولات إلى التعرّف بالأطفال، الذين تُراوح أعمارُهم بين سبعة أعوام واثنيْ عشر عامًا. دامت هذه اللقاءاتُ ساعاتٍ طويلة، شَرَحَ خلالها المصوّرون للأطفال مشروعَهم بشكلٍ مبسّط، واستمعوا بدورهم إلى قصصهم ورواياتهم عن ظروف حياتهم في المخيّم. وحاول المصوّرون تنميةَ إحساس الأطفال بالصورة من ناحيةٍ جمالية، وتوجيههم إلى إدراك أهمية استخدام الصورة وسيلةً للاتصال والتعبير. لكنهم لم يقعوا في فخّ تلقين مفهوم المصوِّر الخاصّ ورؤيته الخاصة عمّا ينتظره من الطفل: فقد تمّ اختيارُ هذه الشريحة العمرية بالذات لأنّ «الأطفال في هذه السنّ يستطيعون التعبيرَ عن أحلامهم وهواجسهم ومشاعرهم الخاصة ببراءةٍ وصدقٍ وعفوية.»

خلال هذه اللقاءات التي استمرت حتى أواخر عام ٢٠٠٧، كان يُختار حوالى سبعة وعشرين طفلاً في كلّ مخيّم، من خلال رسوم يُطلب إليهم تنفيذُها لاختبار قدراتهم الإبداعية ومواهبهم الكامنة. ثم تقيِّم هذه الرسومَ لجنةٌ مكوّنةٌ من مصوّرين ورسّامين وأخصّائيي اجتماع وسينمائيين، فتختار منها ما تراه ينمّ عن الموهبة الأقوى في التقاط الفكرة والخطوط الفنية، ليُمنح الطفلُ صاحبُها كاميرا. ثم اختيرت الصورُ التي شكّلتْ موضوعَ معرضٍ أقيم خلال شهر أيار (مايو) ٢٠٠٨ في مسرح المدينة، واحتفت خلاله الجمعيةُ بالكتاب الذي يحتوي ١٤١ صورة بعدسة الأطفال، ونشرتْه دار «أمار.»

اليومَ، تعمل الجمعيةُ على ترتيب تنقّل هذا المعرض في بلدان عدة، على أن تعود إيراداتُه (وإيراداتُ بيع الكتاب أيضًا) من أجل خلق مشروع ثقافي لأطفال المخيمات تحدَّد معالمُه لاحقًا بالنظر إلى الحقائق والاحتياجات. وسيكون أولَ إرهاصاته تنظيمُ ورشة عمل في الفترة المقبلة تستقبل أطفالاً لبنانيين أيضًا لخلق جسور التواصل بينهم وبين أقرانهم الفلسطينيين في المخيّمات.

❖ ❖ ❖

منذ عقود كثيرة اكتشف غسّان كنفاني ناجي العلي من رسومه الكاريكاتورية المنتشرة على جدران مخيّم عين الحلوة. واليومَ، يَحْلم رمزي باكتشاف مواهب جديدة صافية تبدأ مشوارَها مع فنّ التصوير من النقطة الأصلية: الكاميرا الرقمية. يجري ذلك في ظلّ تقدّم تكنولوجيّ يرى البعضُ أنه أضرّ بأصول المهنة حين استدرج الكثيرين من مستخدمي الكاميرا الديجيتال المحترفين إلى التلاعب بالصورة وتركيبِ اللقطة.

بيروت